بديع القرآن

لابن أبي الإصبع المصري

[٥٨٥ - ٦٥٤هـ]

تقديم وتحقيق
حفني محمد شرف
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

— ١ —

وهكذا يستقر فى أذهان الدارسين أن البحوث الأدبية الأصيلة لا يستقيم أمرها إلا إذا سبقها تحقيقُ النصوص الأدبية ونشرُها نشراً علمياً يُزيل عنها اللبسَ ، ويبرّئها من الشك والغموض ، حتى تبدوَ صحيحة كما أنشأها صاحبها ، وحتى يقف الدارس منها على أرض من الحديد لا تصيبها الزلازل ؛ فيقرأ ، ويفسر ، وينقُد ، ويؤرخ ، ويُفيد .

وهكذا ، أيضاً ، يصبح نقد النصوص أو تحقيقها ونشرُها علماً له أصوله المقررة ، وقواعده المرسومة ، يأخذ بها كل جادّ فى طبع ديوان أدبى ، أو كتاب علمى ، مهما يكلفه ذلك من مال ، وجهد ، وزمن . متصوفاً فى ذلك ، معتقداً أنه إنما يضع اللبِنة الأولى فى بناء العمل العلمى الصحيح .

وقد مضى — إلى غير رجعة — ذلك العهد الذى كانت المطبعة أو المكتبة تفخر بإخراج طبعة أىّ طبعة لكتاب أى كتاب غيرَ عابئة بما ارتكبت فى سبيل ذلك من إهمال الأصول الأولى للكتاب ، ومن التورط فى الحذف والخطأ ، ومن تعريض القراء والدارسين لعجز فى الفهم ، وزيغ فى النقد ، ومن ظلم المؤلفين والمنشئين ، ومن تحريف فى تاريخ العلوم والآداب .

— ٢ —

ولستُ أوغل فى الماضى القديم منذ نشأة هذا الفن الخطير ، وإنما ألاحظ أن كلية الآداب بجامعة القاهرة سبقت حديثاً إلى هذا الجانب من الواجب العلمى فمارسته نظريا وتطبيقياً ، وأخذت الطلاب بالمرانة عليه ، واعتبرته فى مقدمة الأعمال التى تمنح به الدرجات الجامعية العليا ، ولعلّ أولى درجات الدكتوراه فى كلية الآداب إنما مُنحت بنشر « شاهنامة الفردوسى » باللغة العربية .

كما أذكر أنّ قسم اللغة العربية فى هذه الكلية قد أشار على الأستاذ الألمانى (برجستراسر) بإلقاء محاضرات فى هذا العلم أو الفن على طلابه ، ولا تزال محاضراته أو خلاصتها بين أيدى بعض أساتذة الكلية لم تنشر إلى الآن على الرغم من إلحاحى عليهم بنشرها لفائدة العلم من جهة ، ووفاءً لصاحبها من جهة أخرى .

وسار أمر التحقيق والنشر فى مصر والشرق العربى بأسلوب عملى اجتهادى فى الغالب وعُرف به جماعة زاولوه موفقين إلى حدّ ، وتعهدته بعضُ المؤسسات الحكومية والأهلية ، وظهر فى السوق طائفة من الكتب متفاوتة فى درجة التحقيق ، إن لم تبلغ الكمال فهى مقاربة ، وهى أيضاً قد فتحت النفوس للقراءة ، وبعثت فيها اطمئنان أى اطمئنان .

وفى سنة ١٩٥٤ م أشرتُ على السيد الأستاذ الفاضل عبد السلام هارون ، الأستاذ بكلية دار العلوم وأحد اللامعين النابهين فى هذا الفن ، أن يلقى فيه محاضرات على طلاب (الماجستير) يسجل بها تجاربه ، ويدوّن خبرته فاستجاب كريماً موفّقاً وجلستُ مع الطلاب أستمع إليه وأفيدُ منه إذْ كانت محاضراته قسما من (مناهج البحث الأدبى) التى كنت أدرسها لطلاب الدراسات العليا حينذاك .

ثم عاهدته على أن ينشر محاضراته فأوفى بالعهد ، ونشرها بعنوان (تحقيقُ النصوص ونشرُها) وكان بذلك أول جامعي يطالع الناس بثمرات جهوده فى هذا الباب . .

— ٣ —

وليس من شأنى هنا ان أتدخل فى تفاصيل هذا الفن أو العلم ، وهى موكولة إلى المختصين الذين أرجو مخلصاً أن ينشروا بلغتنا العربية ما يزيد الناس نوراً ، ويبصّرهم بهذا الواجب المقدس الذى يحترم النصوص ، ويحفظ عليها حُرمتها ، ويقدر نقادها وناشريها ، ويعصمها من ذلك العبث والإهمال ، ويُقيم عليها دراسات طويلة ، عريضة ، عميقة ، وينفى عنها تلك السطحية أو النظرة الخاطفة السخيفة .

لست أتدخل ، ولكنى أشير ، من قرب أو بعد ، إلى ذلك الجهد المضنى الذى يبذله هؤلاء المتصوّفة المتواضعون فى جمع (الأصول) من الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، ثم المقارنة بينها ، وترتيبها تاريخيا ، ونقد خطوطها ، ومِدادِها وأوراقها وما أضيف إليها فى الهوامش والحواشى ، وما أصابها من (خروم أو تدليس وتزوير) وعرضها على النصوص المعاصرة وغيرها ، .. ثم الانتهاء من ذلك وسواه إلى صورة كاملة أو مقاربة وإعدادها للنشر بفهارس منوعة . تدل على جميع محتوياتها وتيسّر على القارئ الإفادة التامة السريعة . كما يتراءى ذلك فى هذا الأثر الذى أقدمه بهذه الكلمات .

— ٤ —

وهكذا . أيضا ، كان السيد/حفنى شرف أول من تصدّى من طلاب (كلية دار العلوم) لهذا العمل العلمى ، فتقدّم لدرجة الماجستير بتحقيق (بديع القرآن) لابن أبى الإصبع المصرى ، وقد أشفقتُ عليه من أول

الأمر وحاولت دفعه عنه ، ولكنه أصر وثبت ، معتدا بأن له فى ذلك خبرة تجعل عمله بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية .

ولكنى لم أكتف بذلك فأشرت عليه أن يعرض على (أصول الكتاب) مع تقرير عنها ، ففعل واستكمل من الأصول ما وسعه ، وهنا سمحت له بالبدء ، والرجوع فى ذلك الفن إلى الزميل الكريم الأستاذ عبد السلام هارون بعد ملاحظات وضعتها بين يدى هذا الطالب لعلها تنفعه .

وقد صبر حتى شرف ، وصابر ، وبذل من ماله ، وشبابه ، وجهده ، مابذل ، متواضعا يصل الليل بالنهار ، وينصرف عن أهله وولده ، ويحتمل صعاب البحث والدرس ، راجيا ، كما قال فى المقدمة ، أن يكون عمله مقاربا للكمال إن لم يبلغ مداه ... أفأنت تطلب من الإنسان فوق طاقته أو مالا تسعده به وسائله ؟ !

والتقديم ؟ تقديم هذا النص والتعريف به وبمؤلفه ، وهنا لا بد أن أتدخل فأرسم له المنهج ، ومع ذلك كان المنهج بسيطا جدا لا يعدو هذه الفصول : من التعريف بكلمة (بديع) وتتبعها فى تاريخ الاستعمال الأدبى حتى عادت اصطلاحا علميا ، وكان التتبع دقيقا شاملا ، ثم هذا الفصل الثانى فى تاريخ البحوث التى تناولت (بديع القرآن) بمعناه العام .

وفصل ثالث فى حياة المؤلف وآثاره ، وهى فصول تطالك قريبا .

وبذلك يتم الطالب التحقيق والتقديم ويسبق إلى الإسهام فى بعث أديب كبير ، وتمهيد لتاريخ البلاغة فى وطنه العزيز .

— ٥ —

فهل انتهى صاحبنا عند هذا الحد وسكت أو حاول السكوت ؟

يبدو أن نقد النصوص أو تحقيقها صار عند السيد/حفنى شرف ، داء

أصيب به فالتزمه، أو دواء يشفي به مافي نفسه من الرغبة في البحث ، وإشباع حاجتها إلى الكدح ونبش المخطوطات ونشرها ، فلم يكد ينتهي من امتحان الماجستير حتى أخذ يحقق نصا آخر يتقدم به لدرجة الدكتوراه .

اختار كتابا آخر لابن أبي الإصبع ، وهو (تحرير التحبير) ، كتاب بلاغي ولعله أصل (لبديع القرآن) وأشمل منه ، وأحفل بالبحوث النقدية والبلاغية ، وأحوج إلى جهد مضاعف ، وعناء شديد ، وهاهو ذا يجمع أصوله ، ويخرّج شواهده ، ويستقصي مصادره ، ويعرضه على نظائره ، ويعده للنشر ، فلنتركه في جهاده ولنطلب له التوفيق .

— ٦ —

أما بعد ، فإنّي أنا ، أيضا ، أنتهز هذه الفرصة لأقرّر أن الدراسات البلاغية لا تزال تحيا في فلك المنهج القديم : علومه ومسائله ، وأن هذا العلم (البلاغة) في حاجة مُلحّة إلى وضع جديد أشار به السابقون ، وأجلته أنا في غير هذا المكان ، ورجوتُ أن ينهض به هذا الرعيل الجديد ، فإن استطعت تفصيله ... وإلاّ فكمْ ترك الأول للآخر والسلام ؟

٢٣ من اكتوبر سنة ١٩٥٧ م

أحمد الشايب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع البحث ـ أهدافه ـ منهجه ـ مصادره

ـ ١ ـ

وقفتُ في دار الكتب المصرية على كتاب « بديع القرآن » لابي محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصري المعروف بابن أبي الإصبع ، المتوفّ سنة ٦٥٤ هـ وقرأت بعضَ فصوله فإذا أنا أمام كتاب يجمع في بحوثه بين البلاغة والنقد الأدبيّ ، ويعتمد في دراسته على الاستقصاء ، والتحليل ، والموازنة ، والابتكار ، بحيث يمثّل حلقة وضاءة في تاريخ البيان العربي ، وبخاصة فيما يتصل من ذلك بكتاب الله الكريم .

ثم هو مع ذلك يمثل تاريخ البلاغة في مصر ، إذ كان مؤلّفه مصريّ المولد ، والنشأة ، والدراسة ، والحياة كلها . وكان أديبا شاعرا له هذا الطبع الذي ينأى إلى حد كبير من النظرات الفلسفية التجريدية التي أفسدت الدراسة البلاغية عند المتأخرين ، فاستطاع هو وابن الأثير أن يتشبّثا بالجوانب الفنيّة التي تُبرز نواحيَ الجمال والقوة والوضوح في النصوص الأدبية شعرا ونثرا .

لهذه الأسباب ، ولحقّ العلم الخالص ، اعتزمتُ نشرَ هذا الكتاب ودراسته ، لبيان ما فيه من خصائص أدبية وعلمية ، ولإبراز عنصر من عناصر « المصرية »

فى تابع الأدب العربى إذ كانت البلاغة — أو البديع على حد تعبير ابن أبى الإصبع — من أهم مميّزات الفن الأدبى بعامة وفى مصر خاصة .

— ٢ —

إلا أن النُّسخ التى وقفتُ عليها فى دار الكتب المصرية قليلة العدد ، فهى ثلاث تختلف فى بعض المواضع ، وقد لا تكفى وحدها لتحقيق نص الكتاب تحقيقا كاملا أو مقربا ، وهنا توقّفتُ بعضَ الوقت حتى علمت أن اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية استطاعت أن تحصلَ من مكتبات مختلفة على صور أخرى ثلاث لهذا الكتاب ، فأسرعت إلى الحصول عليها ، وبذلك هيئت لى ستُّ نُسخ يمكن الاعتماد عليها إلى حد لا بأس به فى تحقيق النص وإعداده للنشر ، ثم الفراغ فيما بعد لدراسته دراسة شاملة .

وفى ذلك الحين ذكرتُ كليةَ دار العلوم ودرجاتها العلميَّة العُليا ، وحرصَها على أن يتجه أبناؤها إلى العناية بالنشر أولا وقبل كل شىء ، إذ هو الخطوة الأولى للبحوث العلمية الحقيقية ، فتقدّمْت إليها بهذا الكتاب لدرجة « الماجستير » تحت عنوان — تحقيق ودرس — وفرغتُ للنصّ أدرس أصولَه : توثيقا ، وتأريخا ، ومقارنة ، وتحقيقا ، والتزمت فى ذلك القواعد العلميَّة للتحقيق كما أقرها المختصون ، وكما أفدتها بالممارسة فى دار الكتب المصرية إذ كنت عضوا فى القسم الأدبىّ بها ، وقد أثبتُّ ذلك كله فى التمهيد للقسم الأوّل من هذه الرسالة ، وهو قسم التحقيق ، وبذلك انتهيت إلى نص لهذا الكتاب إن لم يكن كاملا فى باب التحقيق العلمى فإنى أرجو أن يكون مقاربا للكمال إن شاء الله تعالى .

— ٣ —

بقيت الدراسة ، وتمنيتُ أن أنهض بها فى ظل هذه الدرجة الجامعيَّة العليا — الماجستير — نعم تمنيت ذلك وأخذت فيه ولكنى وجدت ذلك مجازفة وهجوما على ما لاينبغى الآن ، وإسرافا فى الجهد والوقت ، وربما كان خروجا

على الطاقة العلمية التى تدّخرها الجامعة عند أبنائها لمتابعة البحوث واطّرادها .

وكيف ذلك ؟

إن دراسة هذا الكتاب لابد أن تقوم على جانب تاريخى يصل بين هذا الطّور الذى مثّله ابن أبى الإصبع وبين ما سبقه وما لحقه من بحوث وأنواع فى بلاغة القرآن الكريم خاصة ، وفى البلاغة عامة وبيان مقدار ما تأثّر به من سابقيه ، وما أثّر به فى لاحقيه ، أى أنه يجب على الباحث أن يضع هذا المؤلّف موضعه التاريخىّ فى هذا الفن البيانىّ .

ويجب كذلك ، أن تقوم على جانب آخرَ فنّى يبدى ما أضاف هذا الكتاب من نظرات جماليّة أسلوبيّة إلى بحوث البلاغة القرآنية ، ومقدار ما تتراءى فيه شخصيّة كاتبه ، موازنا ذلك بمن عاصره أو سبقه ، أو أتى بعده لنقدرَ الرجل قدرَه مستمدّين حكمنا من آثاره وقيمتها .

وإن دراسة هذا الكتاب تثير أمرا يجب أن يهتمّ به المعْنَون بدروس البلاغة ، وهو التعقيب عليه ، أو على علم البلاغة فى اللغة العربية ، باقتراح خطة أخرى لهذه الدراسات البلاغية العلمية ، أى أنه لا بد من الجانب الاقتراحى الذى يؤلّف علم البلاغة فى بابين : الأسلوب ، والفنون الأدبية . وأنا أعلم أن هذه الدراسة المقترحة تأخذ مكانها الآن فى كلّيتنا العتيدة ، وأن هناك محاضرات لطلاّب الليسانس ، تُلقَى تحت عنوان « منهج جديد لعلم البلاغة العربية » وأعتقد أن هذه الدراسة التجديدية إنما هى استجابة لما قاله علماؤنا السابقون من أن البلاغة علم لمّا يَنضَج ، وعلينا نحن أن نعيد فيه النظر لعلّنا نحقق للأقدمين ما ينتظرون من المحدَثين .

هذه البحوث التى أشرتُ إليها وما تستتبعه من بحوث أخرى هامة ، يَعُوزُها جهدٌ مضاعَف ، ووقت طويل ، ووسائل شتى من دراسات : نفسية ، ولغوية ، وفنية ... وهى لذلك خليقة بأن يفرَد لها مجال عريض مستقلّ أرجو أن أوفّق إليه فى فرصة أخرى إن شاء الله .

وأعود فأقول : إن تحقيق النص وحده يُعدّ عملا أصيلا فى الدراسة الجامعية العليا ، وإنه كما أسلفت ، يعدّ الخُطوة الأولى لكلّ بحث علمى ، لذلك عُنيتْ به كلّيات الجامعة وعدّته أهمّ شيء فى هذا الطّور من حياتها الناشئة ، ومَنحتْ على أساسه درجةَ الدكتوراه ، لأنه عمل يقتضى صبرا طويلا ، وجهدا شاقا ، يبذله هؤلاء المتواضعون ، أو الجنود المجهولون الذين لا تخدعهم الشهرة ووضع أسمائهم على غُلُف الكتب ، وبين هؤلاء الجنود أردت أن أقوم بنصيبي من التحقيق فى هذه المرحلة الأولى للدراسات العليا فى كلية دار العلوم ، ولعلها — فيما اعتقد — أحقُّ الكلّيات ولْتقدِرُها على هذا النوع من الأعمال العلمية ، أعنى عمل التحقيق والنشر ، لأن أبناءها يأخذون أنفسهم ميكّرين بممارسة النصوص : قراءة وفهما ، ونقدا ، وإحاطة بكلّ ما يقوّمُها من علوم لغوية ، وأدبية ، ودينية .

وأخيرا كان لابدّ لى من أن يكون عنوان رسالتى للماجستير (بديع القرآن لابن أبى الأصبع تحقيق وتقديم) .

١ — أما التحقيق — وهو العمل الأصيل لهذه الرسالة ، أو هو الرسالة نفسُها — فقد أفردت له قسما أوضحتُ فيه منهجى ، فلا أعيد القول فيه ها هنا ، إلا أنى أحب أن أقول : إن هدفى فيه كان تحقيق النص وإعداده للنشر لا غير . وأما الدراسة التاريخية النقدية الاقتراحية فلها مجال آخر أرجو أن أوفّق إليه فيما بعد .

٢ — وأما التقديم فإنه يلقاك بعد هذه المقدمة ، وهو تمهيد لمن يود قراءة هذا الكتاب أو الإقدام على دراسته ، لذلك أوردت هذا التقسيم فى ثلاثة فصول :

أولا : فى تاريخ كلمة (بديع) والمعانى التى تواردت عليها حتى انتهت إلى هذا الوضع الاصطلاحىّ المعروف الآن .

الثانى : فى تاريخ (بديع القرآن) والإشارة الخاطفة إلى عيون ما ألف فيه .

والقصد من هذين الفصلين أن أضع كتاب ابن أبى الإصبع موضعه بين هذه ، وضعا زمنيا وعلميا .

الثالث : فى التعريف بالمؤلف نفسه : عصره ، وحياته ، وآثاره العلمية .... كل ذلك فى إيجاز يقتضيه المقام ، إذ المقصود هو النص المحقق .

وبذلك أكون قد بينت منهج هذه الرسالة بقسميها : التحقيق ، والتقديم

وهدف هذه الرسالة واضح مما قدمنا هنا فإن حق العلم وحده يقتضينا تحقيق النصوص العلمية تحقيقا علميا يعرضها سليمة غير مشوهة ، ولعل هذه النصوص المحققة أهم عنصر فى حضارتنا الأدبية ، ففيها إنصاف لمؤلفيها ، وللتاريخ الأدبى الماضى ، وللتاريخ العلمى المعاصر الذى يُبشّر بيقظة علمية تقدّر ما لها من ماض جليل يستحق الحياة .

ووجه آخر هو أن تحقيق النصوص ، كما قلنا ، هو إعدادها للدرس ، مهما تكن وجهة هذا الدرس ، فقد يستفاد من هذه النصوص كما هى ، وتبقى كما هى أيضا خالدة نافعة ، وقد تتخذ وسيلة للتجديد حين يجب استثمارها أو التعقيب عليها ، وسواء أكان هذا أم ذاك فهى حلقة من حلقات حياتنا العقلية لا يصح أن تنسى ، وهى بالحرى جزء من مستقبلنا أيضا ، فأى جديد لا قديم له ؟!

أما مصادر هذه الرسالة ، فهى النُّسَخ المخطوطة والمصوّرة ، وقد وصفتها فى صدر القسم الأول ، وبيّنت طريقة استخدامها ، والمصادر عندى هى التى تضم

مادّة البحث الأصيلة، وبذلك تفترق عن المراجع التي ألجأ إليها لاستكمال التحقيق أو لتدوين ملاحظات للشرح والإيضاح .

والمراجع كثيرة، رصدتها آخر القسم الأول وفي هوامشه، لتكون عنوانا للباحثين والدارسين .

* * *

وقبل أن ألقيَ القلم أرى لزاما عليّ أن أقدّم جزيل الشكرَ لعَلَمَين جليلين أرشداني أثناء إعداد هذه الرسالة إرشادا كريما خالصا لوجه الله والعلم، هما : الأستاذ أحمد الشايب ، والأستاذ عبد السلام هارون ، وقد علمتهما يكرهان الثناء ، ويحتسبان عند الله ما يقدّمان للدارسين من عون ، فأحببت رضاهما بأن أسكت عمّا يجب عليّ لهما من حمد وثناء، وشكر ودعاء، واكلا إلى الله الكريم أن يجزيهما عني وعن العلم خير الجزاء ،

والحمد لله ربّ العالمين أوّلا وآخرا ؟

حفني محمد شرف

التقـــديم

الفصل الأول

كلمة البديع

معانيها اللغوية والفنية فى تاريخ البلاغة العربية :

— ١ —

نحاول فى هذا التمهيد أن نتتبع كلمة بديع فى أثناء سيرها فى تاريخ اللغة والبلاغة العربية ، ونقف معها عند المعالم الرئيسية لمفاهيمها حتى تنتهى إلى وضعها العلمى الأخير :

جاء فى أهم المعاجم العربية :

بَدَع الشيء يبدَعه بَدْعا وابتَدعه : أنشأه وبدأه ، وبدَعَ الركيَّة : استنبَطها وأحدثها ، وَرَكِى بديع : حديثة الحَفْر ، والبَديع والبِدْع : الشيء الذى يكون أولا والبِدْعة : الحدَث وكل مُحْدَثة . والبديع المُحدِث العَجيب ، والبَديع : المُبْدِع ، وأبدعتُ الشيءَ : اخترعته لاعلى مثال ، وسِقاء بَديع : جديد ، وكذلك زِمام بديع ، وأنشد ابن الأعرابى فى السِّقاء لأبى محمد الفقعسى :

يَنْضَحْنَ ماءَ البَـــدَنِ المُسَرَّى

نَضْحَ البَـــديع الصَّفِقَ المصَفَّرّا

وحبل بديع : جديد ، والبديع : المبتدع بالفتح والكسر ، وأبدع الشاعر : جاء بالبديع. هذه المعانى تنتهى إلى أمرين اثنين :

(١) الجدّة التى يدل عليها إنشاء الشيء ابتداء وعلى غير مثال سابق .

(٢) البراعة والغرابة التى يدلّ عليها العجيب .

والوارد فى سائر المعاجم لا يخرج عن هذين المعنيين اللغويّين[١] .

— ٢ —

وقد ورد لفظ (البديع) أو مشتقاته فى الشعر الجاهلى وشعر المخضرمين بمعنى الجديد والمخترَع ، فقال عديّ بن زيد :

فلا أنا بِدْعٌ من حوادثَ تَعْتَرِى ... رجالا غدتْ من بعْد بؤس بأسعُدِ[٢]

وقال الأفوه الأوْدىّ :

ولكلّ ساعٍ سُنّةٌ ممّن مضى ... تُنمى به فى سعيه أو تُبْدِعُ

وقال حسان بن ثابت[٣] :

قــوم إذا حاربوا ضرّوا عــدوّهم ... أو حاوَلوا النّفْــع فى أشياعهم نفَعوا

سجيّةٌ تلك فيهم غيرُ مُحدَثةٍ ... إنّ الخلائقَ فاعلمْ شرُّها البِدَعُ

وقال الأحوص[٤] :

فَخَرتْ فَأتْممتُ فقــلتُ انظرِينى ... ليس جَهْــلٌ أتيته بِبَــدِيعِ

---

(١) لسان العرب ، القاموس ، تاج العروس (مادة بدع) .

(٢) اللسان مادة (بدَع) القرطبى ١٦/١٨٥ طبع دار الكتب المصرية .

(٣) ديوانه ٢٤٨ ط القاهرة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩)م والمراد بكلمة (البدع) هنا مستحدثات الأخلاق .

(٤) اللسان مادة (بدع) . والأغانى ٤ : ٣٤

وأما فى القرآن الكريم فقد وردت كلمة (بديع) مرتين فى قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[1] ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[2] ﴾ . ومعناها فى هاتين الآيتين : منشئهما ومُبدئهما على غير مثال سابق[3]

وعندى أن ذلك يتضمن معنى العجيب أى السار ، والطريف الذى يلفت النظر ، لأن خلق السموات والأرض ابتداء يستدعى الإعجاب وقد اتخذ دليلا على قدرة الله وألوهيته .

— ٤ —

وفى الحديث الشريف ورد هذا اللفظ بمعنى الجديد الطيّب ، يقول الرسول عليه السلام فى وصف نِهامة : « إنّ نِهامة كبديع المسك حُلو أوّله، حلو آخره[4] ».

وقد وردت المادّة أيضاً بمعنى الجدّة ، فقد رُوى عن الرسول : « كيف أصنعُ بما أبدع علىّ منها[5] » ، وفى حديث عمر : « نِعمت البدعة هذه » .

وسنجد هذين المعنيين يتفقان مع المعانى الأدبية أو الفنية التى أطلقت فيما بعد على بعض المبارات والصُّور الواردة فى الشعر والنثر لجدّتهما وطرافتهما .

---

(١) البقرة آية ١١٧ .
(٢) الأنعام آية ١٠١
(٣) راجع معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/٨٥ ط الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٣ .
(٤) راجع النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/١٧ .
(٥) ابن الأثير ١/٦٧ ، واللسان والصباح (مادة بدع) .

فإذا انتقلنا إلى الأدب العربى فى صدر الإسلام شعرا ونثرا وجدنا هذه المادة مستعملة عندهم فى هذه المعانى السابقة .

أما النثر : فكقول على رضى الله عنه : « إن[1] أبغض الخلائق إلىّ رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة » . وقوله « إنما[2] بدء وقوع الفتنة أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله » . وكقوله : « الحمد[3] لله المعروف من غير رؤية » إلى أن يقول : « لا فج ذو اعوجاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خلق ذو اعتماد، وذلك مبتدع الخلق ووارثه » .

وقد وردت هذه المادة أيضا فى كلام ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب بنفس هذا المعنى، مما يدل على استعمالها فيما استعملت فيه يقول ابن المقفع[4] :

وجل الأدب بالنطق ، وكل المنطق بالتعلم ، ليس حرف من حروف معجمه ولا اسم من أسماء أنواعه إلا وهو مروى متعلم، مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب ، وذلك دليل على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ، ولم يأتهم علمها ، إلى أن يقول أيضا : فمن جرى على كلام يستحسن منه فلا يعجبن به إعجاب المبتدع، فإنه إنما اجتباه كما وصفنا .

ويقول عبد الحميد الكاتب[5]: (الحمد لله الملى مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه ، الثابتة كلمته ، الشافية آياته ، إلى أن يقول : (وقدرها بحكمه على ما يشاء من عزمه، مبتدعا لها بإنشائه إياها، وقدرته عليها) .

---

(١) نهج البلاغة ص ٢٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٦) المصدر نفسه ص ٧٣ .
(٣) رسائل البلغاء ٣ ط القاهرة سنة ١٩٠٨ .
(٤) انظر المصدر نفسه ص ٩١ وص ٧٣ و ٧٠ .

ويقول فى رسالة ينصح بها ولىّ العهد عبد الله بن مروان حينما خرج لقتال الضحّاك بن قيس الشيبانى الخارجى : « فإن وجّه أحدهم نظره إليك فحدّثه أو رماك ببصره فالحظه، فاخفض عنه إطراقا جميلا بإبداع وسكون » ويقول فى نفس الوصية : « فلا يصلنّ إلى مشافهتك ساع بشبهة ، ولا مقرون بتهمة ، ولا منسوب إلى بدعة ، فيمرّضك لابتداع فى دينك ، » .

وأما الشعرُ : فكقول عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

فأتتها فأخبرتها بعذرى ثم قالت أتيت أمرا بديعا[1]

وقوله :

أقلت الرشدَ صرمُ حبالِ هند وما إن ما أتيت به بِبِدعِ[2]

وكقول كثيّر عزّة :

وحاجةِ نفسٍ قد قضيتُ وحاجةٍ تركتُ وأمرٍ قد أصبت بديعِ[3]

وكقول الفرزدق :

أبتْ ناقتى إلاّ زيادا ورغبتى وما الجودُ من أخلاقه ببديعِ[4]

وكقول جرير :

يا آل مروانَ إن الله فضّلكم فضلا عظيما على من دينُه البدعُ[5]

وهنا يجب ألا ننسى أننا ندوّن المعنى اللغوىّ لهذه الكلمة (البديع) فى العصور التاريخية والأدبية، وهى إلى الآن عصور كانت تنشىء فى الشعر والنثر العبارات والصُّور الأدبية التى سيطلق عليها فيما بعد هذا الاصطلاح (البديع)

---

(١) ديوانه ط السعادة ص ٣٤٧ .

(٢) ديوانه ٣٥٠ والمراد ليس بعجيب حدث منك بل هو شىء طبعت عليه .

(٣) ديوانه طبع أوربا سنة ١٩٢٨ | ١٣٢ ومعجم الأدباء لياقوت .

(٤) من قصيدة يمدح بها زياد بن الربيع بن أنس بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث ابن مالك بن ربيعة، وكان فى هجر ؛ ديوانه ص ٤٩٣ ط القاهرة سنة ١٩٣٨ .

(٥) من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ديوانه ص ٣٥٦ ط القاهرة سنة ٦

فكان الشعراء والكتّاب والخطباء ينشئون الطباق والجناس والتشبيه والاستعارة شاعرين بطرافتها وقوتها وجمالها من غير أن يضعوا لها اسطلاحا علميا، كذلك كان القرآن المثلَ الأعلى فى هذا الاستعمال من قبل أن يُعنى العلماء باستقصاء ووصف (بديع القرآن) كما فعل ابن أبى الإصبع أخيرا .

— ٦ —

وجاء العصر العباسى الأول ،وظهر فيه من شعراء البديع بشار بن بُرد المتوفى سنة ١٦٧ هـ ، ومسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨ هـ وأبو تمّام المتوفى سنة ٢٣١هـ وابن الرومى المتوفّى سنة ٢٨١هـ والبحترى المتوفّى سنة ٢٨٤ هـ وعبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، وقد تَنبهتْ الأذهان إلى مافى شعرهم من طرائف الصنعة البديعية ، واندفع فيها بعضهم إلى درجة الإفراط كأبى تمام ، ووقف فيها بعضهم إلى حد القصد كالبحترىّ وابن المعتزّ ، وادّعى بعضهم أنهم مخترعو هذه الفنون ومبتدِعوها، فجاء ابن المعتز للرد عليهم فى كتابه (البديع) ..

— ٧ —

وهنا نقف لنأخذ بيد هذه الكلمة (البديع) فى ميدان المفاهيم العلمية أو البيانية، بعد أن نوّهنا ببروزها فى المجال الفنى ، ولئن صَحّ ما زعم الرواة كان مسلم بن الوليد الشاعر هو أول من سمّى هذا النوع بالبديع واللطيف[1] واستعمله فى شعره، وتبعه طائفة من الشعراء أشهرهم أبو تمام .

ومع ذلك فلعلّ الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ من أول من دوّن واستعمل هذه الكلمة استعمالا نقديا علميا وإن لم يخرج بها فى هذا الاستعمال عن معنى الجدّة والطرافة فقد روى قول الأشهب بن رميلة[2] :

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى جـ١٩ من نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٠١٩ ز لوحة ٧١ وديوانه طبع ليدن ٢٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ٤ : ٥٥ .